عنيزة

كما وصفها ووصف أهلها الرحالة

شارلز داوتي (Charles M. Doughty)

قبل أكثر من 130 عاما

في كتابه: رحلات في الصحراء العربية (Travels in Arabia Deserta)

ترجمة د. خالد بن صالح القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

شارلز داوتي (Charles M. Doughty)

في كتابه: رحلات في الصحراء العربية (Travels in Arabia Deserta)

زار داوتي شبه الجزيرة العربية في نهاية القرن الثالث عشر الهجري (خلال الفترة **1876–1878**م)، وكان يعرف اللغة العربية، بل إنه ضمن كتابه العديد من الكلمات المحلية الدارجة التي تدل على سعة اطلاع في هذه المسألة[1].

وخلال هذه الرحلة مر بمدينة عنيزة وأقام فيها ووجد فيها أصدقاء سر بهم كثيراً وأقرضه بعضهم مالاً لمتابعة رحلته. وقد وصف المؤلف كثيراً من مظاهر الحياة الاجتماعية في المدينة. ورغم أن ما كتبه داوتي هو أشبه ما يكون بقصة تحكي ما حصل له إلا أن الباحث يستطيع أن يدخل في عمق هذه الرواية ويستقي الكثير من المعلومات النادرة وذات القيمة التاريخية خاصة مما له علاقة بالدراسات الاجتماعية والاقتصادية.

ذكر داوتي[2]:

---

[1] نشرت جامعة كامبردج كتاب داوتي لأول مرة سنة **1888**م في جزأين يضمان نحو **600000** كلمة، وكان عدد النسخ التي نشرت آنذاك **500** نسخة فقط، ثم حرره جارنت (**Edward Garnett**) في مجلدين ونشر سنة **1908**م (الناشر: **Duckworth**) تحت اسم تجوال في الصحراء العربية (**Wandering in Arabia Deserta**). كما تم نشره مع مقدمة كتبها لورانس (**T.E.Lawrence**) عام **1921**م تحت اسم الصحراء العربية (**Arabia Deserta**). وقد أعاد جارنت سنة **1931**م طباعة هذا الكتاب مختصراً في مجلد واحد تحت اسم (**Passages from Arabia Deserta**). وفي سنة **1989**م ظهرت نسخة حديثة للكتاب نشرتها مؤسسة بلومزبري (**Bloomsbury**) في لندن وظهرت في مجلد واحد ضم أهم

في الطريق من بريدة إلى عنيزة اجتزنا –أنا ومرافقي– وادي الرمة ، ولما وصلنا إلى عنيزة دخلنا من سور المدينة وقد سبق أن قال لي مرافقي إنه سيغادرني عندما نصل إلى بيت أحد "خويا" أمير عنيزة زامل. وعندما وصلنا إلى بيت هذا "الخوي" طرق مرافقي حلقة الباب ففتحت امرأة سوداء (كان زوجها أحد خويا زامل والذين غالبا ما يكونون من السود، وكان في نفس الوقت أحد بائعي اللحوم "قصاصيب" عنيزة، وذكرت أن زوجها غير موجود وأنه في سوق اللحوم.

أنزلت أمتعتي من الجمل في ساحة صغيرة معده للجمال وانتظرت الخوي علياً صاحب المنزل الذي سرعان ما جاء إلى بيته فاقترب مني وقبلني ودعاني إلى قهوته. وكان مع علي بعض أصدقائه الذين شربوا القهوة معنا في بيته. وتجدر الإشارة إلى أن شرب القهوة مشهور في عنيزة حتى في البيوت الفقيرة. بعدما شربنا القهوة قدم لي علي فطوراً جيداً وكان كريماً معي فقد جلس يأكل معي ويؤانسني. بعدما انتهينا من الأكل ذهبت مع "الخوي" علي للأمير زامل... وقد مررنا بشوارع نظيفة تفتح عليها دكاكين صغيرة، ومررنا بسوق عنيزة الذي كان يعج بالبائعين والمشترين، وكان البائعون ورواد السوق كلهم من الرجال لأن النساء تبقى في البيوت.

في الطريق إلى منزل الأمير قابلنا شخصان وحيا أحدهما علياً وقال له "أهلا.. إن هذا الرجل الغريب الذي معك نصراني" فالتفت علي نحوي مستغرباً وقال: **Good morrow Khawja** "كود مورو خواجا" فقلت له أنا لست خواجا بل إنجليزي (يقول داوتي: لأن الخواجات لقب يطلق على اليهود والمسيحيين في البلدان المجاورة). وقد استغربت كيف عرفا بأنني نصراني فقال لي الرجلان: ليلة البارحة قال لنا أناس قدموا من بريدة إنك نصراني، وعندما عرف علي بوضعي قال لي هيا بنا بسرعة إلى زامل، فقال الرجلان زامل "لم يجلس" بعد ولكن أحضر

ما ورد في الكتاب الأصلي، كما ألحق هذه النسخة مجموعة رائعة من الصور التي التقطها العديد من الرحالة الذين مروا بهذه البلاد. وقد حملت هذه النسخة عنواناً بالعربية هو: عربيا دزرتا **(Arabia Deserta)**.

[2] انظر الطبعة التي نشرتها مؤسسة بلومزبري سنة 1989م:

Doughty, Charles M., (1989), Arabia Deserta (With An Introduction by T.E. Lawrence, Bloomsbury Publishing Ltd, London, pp. 201-232

ضيفك ليشرب القهوة معنا في بيتنا. ثم قالا: نحن من جدة ونعرف هناك نصارى من كل جنس. وقد ذهبنا معهما إلى بيت كبير وسط السوق (المجلس) وصعدنا للدور الثاني من البيت حيث كانت هناك غرفة مفروشة بالسجاد، وكان الرجلان من تجار عنيزة الذين يترددون على جدة للتجارة. وقد أراني أحدهما بندقية "ونشستر" وفيها 17 طلقة، وكان منها خمسون في عنيزة ، وبهذه البنادق التي كانت بحوزتهم لم يكونوا ليخافوا من ابن رشيد....

وبعد فترة من الوقت غادرناها –أنا وعلي– هذين الرجلين إلى الأمير زامل الذي كان "جالساً" خارج قصره على "عتبة" من الطين مقابل سوق القماشين. وكان هناك "عتبتان" طويلتان مفروشتان بالسجاد وقد جلس زامل على أحدهما متقلداً سيفه. وكان زامل رجلا قصيراً تبدو عليه علامات الذكاء، وعندما اقتربنا منه نظر إلي بهدوء وقام من مجلسه وأخذني بيده وقال لي بلطف: اجلس.. فجلست بجانبه ، وقلت له لقد جئت من بريدة وأنا طبيب إنجليزي نصراني. وقد كان معي بعض الأوراق التي أريتها إياه فقرأها ورفع حاجبه إلي وقال: حسن ، ولكن لا تذكر للناس أنك نصراني... قل لهم إنك عسكري من العثمانيين. قال زامل للخوي علي: ارجع مع خليل "الذي تسمى به داوتي" لمنزلك وعد إلي معه بعد صلاة الظهر ليشرب القهوة معي في بيتي ولكن لا تذهب به إلى السوق أو للأماكن التي يتجمع فيها الناس... رجعنا إلى البيت واجتزنا سوق الأقمشة، ثم مررنا بقرب سوق اللحوم، وكانت حركة البيع والشراء في سوق المدينة قائمة على قدم وساق، والناس في شغل شاغل لدرجة أن القلة منهم من لاحظنا وحيانا .. وقد اقترب رجل مني في السوق وسألني من أين أنت؟ هل أنت نصراني؟ فأجبته ، نعم ، فالتفت الرجل "للخوي" علي وقال له : ماذا لو سألك يا علي أحد عن هذا الذي معك، فأجابه علي: سأقول إنه رجل غريب في طريقه للكويت.

عنيزة تبدو مدينة هادئة ومريحة ويوجد فيها جميع الحاجات اللازمة لقيام الحياة المدنية.. لقد اجتزنا قرب المسجد الكبير المبنى بناءاً جيداً قرب قصر الإمارة. وبعد صلاة الظهر ذهبنا إلى بيت زامل

الذي يقع في زقاق "سد" متفرع من "المجلس"، وغرفة القهوة عنده مفروشة بالحصف (جمع حصاف) فقط. وكان معه عدد قليل من الرجال وقد جلس ابنه الأكبر عبدالله في "المكمة" يصنع القهوة.. وعندما يتكلم زامل لا يبدو عليه أنه خلق ليحكم ولكن هذه الطريقة من اللطف هي طريقة شيوخ العرب الطبيعية.

دخل علينا في "القهوة" رجل اسمه علي وجلس معنا، وعلي هذا هو عم الأمير زامل وقد ولاه في إحدى السنين الخوالي مكانه على المدينة، والآن هو نائبه على عنيزة، وهو يشتغل حالياً بتجارة الإبل. وقد جلس زامل يستند على مسنده أمام ضيوفه، وجلس ابنه عبدالله يدخن "البايب" وهو الأمر الذي يبدو ممنوعاً في الأسواق. عندما أعدت القهوة سكب الفنجال الأول لزامل، وأثناء ذلك قال زامل لعمه: هذا الغريب طبيب قادم من دمشق ونريد أن نرسله بناءً على رغبته إلى الكويت، وقد نظر علي -المليء بحماس الوهابيين- إلي نظرة خاطفة وقال: سمعت أنه نصراني، هل من الممكن أن ندع عندنا نصرانياً بالديرة؟ عندما ذهب الجميع وبقيت أنا وزامل أراني زامل ساعده وفيه آثار ضربات من الحروب التي خاضها خلال العشرين سنة الماضية وكان ساعده ملتهباً وفيه حكة. وقد رأيت كثيراً مثله في عنيزة.. وقد قال لي إذا استطاع أحد أن يداوي ما بي سأعطيه بعض المال.

عندما عرف الناس أنني طبيب قدم بعض المرضى لطلب العلاج، وقد قدم لي أحدهم دكاناً في السوق لأجلس فيه. فرح الخوي علي بذلك وحمل الخوي متاعي بحماس إلى هذا الدكان، وخلال الظهر فتحتُ المحل وفرحت أنني وجدت مكاناً خاصاً بي. وعندما أذن المؤذن للظهر كان الناس يمرون من عندي في طريقهم إلى المسجد الواقع في نهاية الشارع، وكانوا يذهبون إلى المسجد بحماس كما لوا لو كانوا أصدقاء الرسول. وقد أغلقت الباب علي حتى لا يقولوا لي لماذا لا أصلي. إن أهل عنيزة عادة ما يرتاحون في بيوتهم خلال القيلولة بعد صلاة الظهر، ولكن كبار أهل البلد -في مقامهم- يذهبون إلى البيوت ليشربوا قهوة الظهر مع أصدقائهم.

لقد جاء بعض الناس –الذين رجعوا من المسجد ومروا بقرب محلي– ليروا هذا النصراني ويشاهدوا الأدوية التي يستخدمها، وتجدر الإشارة إلى أنه كل العرب مرضى أو يتصورن أنهم مرضى أو مسحورين، وبعض أهل البلد عاطلون عن العمل وكسالى. وقد كان سكان المدينة يتصرفون معي بلطف، خاصة أن الأمير زامل أكد على الناس أن لا يزعج أحد الحاج خليلاً، وكان زامل يستند في تسميتي بالحاج على ذهابي إلى الأماكن المقدسة (القدس)، ولذلك دعاني بالحاج.

هذا وتصرف أهل مدينة عنيزة حضاري، وهم يتصرفون بحرية وعزة، ويظهر الأمير وكأنه واحد منهم، فهو يقوم بواجبه وكأنه شيخ قبيلة يحترم أبناء قبيلته.

في أثناء جلوسي بالدكان مر بقربي بعض كبار أهل البلدة راجعين من بيوت أصدقائهم واقترب أحدهم مني وقال هل لديك معرفة بالطب –وكان هذا الشخص لطيفاً ينتمي إلى قبيلة تميم– وقد أخذ يدي بيده وهي علامة محبة عند العرب وقال لي: هل من الممكن أن تعالج أمي المريضة فوافقت وذهبت معه إلى بيته، ودخل هو أولاً من خوخة في الباب ثم فتح الباب لي فدخلنا إلى حجرة "القهوة" وهي حجرة كبيرة مفروشة بالخصف الجيدة المعمولة في الأحساء، وجدرانها منقوشة بالجص كالتي رأيتها في بريدة، وقد كانت هناك سجادة فارسية فرشت أمام (الوجار) وهي مخصصة للضيوف، وقد جلس مضيفي خلف "الوجار" لصنع القهوة. هذا هو عبدالله الخنيني الذي ينحدر من أسرة طيبة كانت فقيرة، ولكنه هو سافر من عنيزة عندما كان شاباً، وقاسى الصعاب حتى أصبح من التجار المرموقين، وكانت تجارته في القمح بالبصرة في بلاد الرافدين ولذا فهو قد عاش بعيداً عن بلده. وعندما قابلته في عنيزة كان قد ترك رعاية تجارته في البصرة لأخيه صالح، وجاء لعنيزة لقضاء عام كامل في بلده بين أهله حيث الهواء الطلق الصحي هواء النفود.

قال لي الخنيني إذن أنت إنجليزي! ولكن لماذا تقول للناس إنك كذلك. وبالمناسبة فقد سبق لي –يقول الخنيني– أن ذهبت إلى بمباي في الهند التي تقع تحت حكم الإنجليز لذلك لا أستغرب عندما تقول لي أنا إنك إنجليزي، لكن لا تقول ذلك للناس الجهلة فقد يحصل لك ما لا تتوقع. لقد بدا لي هذا بسيطاً، ولكنه غريب، فالبدو يظنون أن النصراني شر وشيطان ويستحق القتل. وعلى كل

فنصف سكان هذه المدينة وهابيون، ولذلك هل أكذب ولا أقول الصدق الذي تعودت أن أقوله في بلدي؟! لقد قال لي الخنيني: لكل منا لسان يحمينا ويبعد عنا الأعداء، وفي أحيان كثيرة الكذب أحسن من الصدق.

ذكر لي الخنيني أنه لا يجد الإنجليز حكماء دائماً، ففي الحرب التي دارت بين عبدالله وسعود أرسل الإنجليز في الخليج مئات من أكياس الرز سراً إلى سعود وكان هذا خطأ، فعبدالله الوهابي كره اسم الإنجليز كرها شديداً. قال لي الخنيني: أراك غير مقتنع بما أقول! على أية حال أرجو أن لا يصيبك مكروه، لكن لن يرضى الناس في الجزيرة أن تعيش بينهم إذا علموا بحالك ولهذا سوف ترحل من مكان لآخر. ذكرت للخنيني أن مدينة عنيزة تبدو لي هادئة وآمنة والناس واسعوا الأفق، وقلت له أليس الأمر كذلك؟ فقال لي إن معظم الناس كذلك لكن البقية لا. بعد حديث ودي في "قهوة" الخنيني أخذني لغرفة داخلية ثم صعدنا للدور الثاني –في بيته الذي اشتراه قبل سنة– وكان الدور الثاني مكون من عدة غرف، لكن معظمها ليس فيها متاع لأن الناس هنا ليس لديهم أمتعة كثيرة، والذي لديهم هو أكثر قليلاً مما لدى البدو، فكل ما في البيت يمكن أن تحمله ثلاثة جمال.

إن أسرة النوم غير معروفة في هذه البلاد العربية، فهم ينامون على الأرض والناس ذو الأحوال المادية الجيدة ليس عندهم أكثر من فراش قطني خفيف ينامون عليه مع غطاء خفيف أيضاً. وعلى كل فهذه البساطة في بيت الخنيني وبيوت أهل عنيزة بصفة عامة لا تجدها في بيت الخنيني في البصرة حيث يجلس الناس على مقاعد، وأمتعتهم فيها ترف. عندما دخلنا إحدى الغرف كانت والدة الخنيني العجوز تجلس على الأرض وقد غطت وجهها، فابتسم الخنيني وقال لأمه لقد أحضرت لك الحكيم الدكتور فقولي له ما يؤلمك ودعيه يكشف على عيونك، وقد أنزلت غطاءها برفق ثم قالت رأسي وهذا الجنب كله يوجعني لا اقدر أن أنام منه يا وليدي.. وكان عمر الخنيني بحدود الأربعين عاماً ولذا لابد أن تكون والدته كبيرة جداً ومع ذلك فقد ترددت في أن ينظر أجنبي إلى عينيها الشاحبتين.

وبعد أن فحصت عيني والدته عدنا إلى غرفة القهوة صديقين وقال لي الخنيني أمي كبيرة ومريضة وأنا أتألم وأنا أراها تعاني هكذا ولذا سوف أحس براحة شديدة إذا عالجتها وشفيت. وقال لي الخنيني: أنا أعجب من أنك تجاهر في هذه البلاد بأنك إنجليزي! لكن احذر فليست كل الأيام بأمان.. أنا عشت مع البدو وأعرف ما لا تعرف فكن حريصاً.. ولا تخف في عنيزة فعندما أرى أي خطر يتعلق بك سوف أخبرك. وسألته ماذا عن الأمير، قال لي يمكن أن تثق بزامل لكن أحياناً يفلت الزمام من يديه إذا ما خالفه أناس كثر.. لقد كانت تفوح من هذه الغرفة وغرف "القهوة" الطينية الأخرى في عنيزة رائحة من الكرم ويهب نسيم عليل من نوافذها.

لقد كانت توجد في القهوة قرب الوجار (روزنة) فيها كتب الخنيني، وقد تصفحتها جميعا وكانت باللغة بالعربية وكان عنوان أحدها "انسكلوبيديا البستاني (بيروت)".

لقد أخبرني الخنيني أنه سبق أن اشترى مزرعة في عنيزة فيها أشجار من النخيل وقمح، وفيها بئر ذكر الخنيني أنه يبحث عن طريقة لاستخراج مائها بحيث لا يحتاج إلى مساعدة الإبل، وذكر أن عنده ثمانية من الإبل لرفع الماء من البئر. لقد سألني الخنيني عن خبرتي بالأدوية فذكرت له أنني لست ضليعاً فيها، ولكنه كان متأكداً بأنني على معرفة جيدة لها خاصة عندما شفي كثير من مرضاي ومنهم أمه. عندما كنا نتحادث أنا والخنيني في بيته جاء رجلان من أهل عنيزة -سيد وخادمه- وكان عليهما عقالان ضخمان كأنهما من العمائم وهذا النوع من العقل مصنوع من صوف الإبل، وكان هذا السيد جمالاً يتنقل بين العراق وسوريا للبحث عن أسباب الرزق، ولكنه باع جماله وأصبح مزارعاً مشهوراً في العمارة شمال البصرة، وهو من زبائن الخنيني الذي يعد من أكبر تجار القمح في مدينة العمارة. بعد قليل وضعت المائدة، ولما هممت بالمغادرة أصر الخنيني على أن أجلس لآكل معهم، وهكذا قضيت يوماً ممتعاً في بلاد العرب....

وقد غادرت منزل الخنيني هذا ونمت في الليل عند أحد مرضاي الفقراء لأنني لم أكن راغباً في النوم في الدكان حيث لم يكن نظيفاً. وفي الصباح جاءني الحوي علي مرسلاً من قبل الأمير زامل ليقدم لي الفطور وكان عبارة عن خبز وملح ولكنه كان -على أية حال- طعاماً طيباً قدم من قبل أمير

فيلسوف محبوب إلى مسيحي غريب. وقد تناولنا قهوة الصباح والفطور ثلاثتنا أنا والأمير والخوي علي، ويتكون الفطور في عنيزة -عادة- من خبز مدور حار ولكنه مر على مذاقي ولكن كما قال لي الحسيني لهم لا يحسون بمرارته ربما لأن هناك ملحاً مطحوناً مع القمح الذي صنع منه الخبز. بعدها تناولنا تمراً وزبداً و"طاسة" من اللبن كانت بالجوار بحيث يشرب الإنسان منها بعد أن ينتهي من فطوره وقبل أن يقوم ليغسل يديه (يستخدم لذلك إبريق خاص وحوض حديدي). بعدما فرغنا من الإفطار ذهبت لأجلس في دكاني، وبعد فترة أرسل لي زامل رجلاً من لحم الغنم اشتراها "الخوي" علي من سوق "القصابين"، ولحم الغنم في عنيزة جيد. أما لحم الإبل فيشتريه الناس الفقراء، ورجل الغنم من اللحم الطيب والتي تزن خمسة أو ستة أرطال تباع بما يعادل ست بنسات. وكانت تباع في عنيزة صغار الغزلان التي يجلبها البدو، وغالباً ما يربيها الأهالي ليلعب معها الأطفال وكان الواحد منها يباع بما يعادل ثمانية بنسات.

عندما كنت جالساً في دكاني جاء رجل وطلب مني أن أغادر الدكان فصاح في وجهه الخوي علي قائلاً إن هذا النصراني يجلس هنا بإذن زامل. ولكن هذا الرجل (الأمير علي وهو عم الأمير زامل ونائبه) أصر على خروجي من الدكان وقال آخ ... زامل ... آخ .. المحل محلي وأنا قلت يخرج .. آخ .. اخرج .. اخرج ... اخرج.. لكن الخوي الزغبي صاح قائلاً زامل أمير عنيزة فمن أنت لتخرجه؟ فقال عم زامل وأنا أيضاً أمير! هذا وأظن أن الأمير علي كان قد احترمني قليلاً ولذلك لم يوجه كلمة قاسية لي .. وعلى كل فالمحل محله وهو وهابي متشدد وليس كالأمير زامل الواسع الأفق، ولكن ربما يثير عم زامل البلد ضدي بسبب نصرانيتي. وفي النهاية أغلق علي هذا (الأمير علي) دكاني فأصبحت بلا مأوى وبقيت مع متاعي في الشارع فتجمع الناس العاطلون والمخدوعين فرجة لهم، ولكن علي الزغبي صاح فيهم قائلاً إن الأمير زامل سوف يعاقب أي إنسان يضايق خليلاً..

اشتدت حرارة النهار وأذن الظهر وأنا مازلت في الشارع مع أمتعتي، وكان المارة في طريقهم للمسجد ينظرون إلي ويصيحون يا الله هذا الذي لا يصلي.. وقد جاء شخص..ومعه عصا طويلة

وتظهر عليه علامات الحماس...، وكان يضرب بهذه العصا المتباطئين عن الذهاب إلى المسجد .. وكان معه مجموعه فغروا أفواههم وهم يشاهدونني.. وقد قال لي هذا الرجل قم صل .. قم صل الله يدحضك.. وقد هدد هذا الرجل الزنجي علياً الذي ظل باقياً معي، ولكن هذا المسكين ما لبث أن أطاع ذلك الشخص خاصة بعد أن خوفه بالله.

وقد شجعني علي هذا على أن أتكلم مع زامل عن قضية الدكان، فذهبت إليه في الظهر ووجدته عند باب بيته وحدثته فقال لي بصوت هادئ لن تدخل داخل البيت لأن "القهوة" مليئة بالبدو (وكان فيها شيخ مطير وبعض أتباعه الذين جاؤوا يطلبون من الأمير أن يقوم معهم في حرب ضد قحطان) وقد سار معي زامل وجلسنا سوية تحت ظلال أحد الجدران نتحادث وقد سألني زامل عما إذا كنت قد فقدت دكاني .. وطلب من الخوي علي أن يبحث لي عن مكان آخر..

وقد وجد لي علي سكناً رديئاً حتى أن أصدقائي قالوا لي إن هذا بيت فئران لا يصلح للسكنى.. وقد قال لهم علي إنه بحث قدر جهده، ولكن كل واحد يحدثه في أمري كان يصده ويقول له هل أدع النصراني يسكن في بيتي.. وكان هذا البيت المتهدم لرجل فقير جداً وهو أحد المرضى الذين أقوم بعلاجهم، وقد طلب مني كراءاً يومياً عالياً على الرغم من أنني أقوم بعلاجه مجاناً...

استطاع الخوي علي في اليوم التالي أن يقنع أحد جيرانه السود بأن يسمح لهذا الطبيب بأن يسكن في إحدى الغرف الخالية في بيته مقابل أن يعالج أباه الأعمى. كان هذا الأب هو عتيق لعائلة (يحيي) الذين أصبحوا فيما بعد أصدقائي وكان مضيفي الأسود مزخرفاً للجص في "قهاوي" أهل المدينة.

في اليوم التالي ذهبت لتناول الفطور مع الحنيني في بيته.. وقد كنت أذهب للسوق كل يوم صباح فأجد من يطلبني لزيارة صديقة أو قريبه المريض، وهناك أتناول الفطور الذي هو عبارة عن خبز ولبن، ولذلك أفطر –أحياناً– مرتين أو ثلاث مرات كل يوم. ومعظم أمراض أهل عنيزة تتعلق بعيونهم وقدر رأيت مئات من مرضى العيون في عنيزة، كما أن بعضهم مصاب بالحمى أو الجدري، وكثير منهم فقد عينه أو كلتي عينيه أثناء طفولته، ومرض الجدري منتشر الآن في المدينة مع أنه لم ير منذ سبع سنوات وقد انتشر أخيراً بسبب العدوى من بعض الأطفال العبيد الذين وصلوا البلدة مع

إحدى قوافل الحجاج العائدة. وقد اعتاد أصحاب بعض القوافل شراء العبيد من مدينة جدة وبيعهم في عنيزة، وأحيانا نقلهم إلى العراق فيربحون بعض المال، ولكن بسبب قلة التطعيم (كما أعتقد) فقدت المدينة خمسمائة طفل أثناء جلوسي هناك.. وهذه العدوى من الجدري لم تتعد آثارها الوادي إلى بريدة أو إلى أية قرية من قرى النفود القريبة. وقد دعيت مراراً لزيارة بيوت فيها أشخاص مصابون بالجدري، وهم لا يتلقون أي علاج، حتى بعض المتشددين في الدين دخلت بيوقم لرؤية مرضاهم. والنساء في المدينة لا يظهرن في النهار ولكن في المساء وعندما يذهب الرجال لتناول القهوة في مجالسهم تخرج بعض النساء المتحجبات لمنازل أقارهن أو جيراهن، ويعدن بسرعة خلال صلاة العشاء عندما يكون الرجال في المساجد.

بعد يوم أو يومين من وصولي لعنيزة جاءني أحد كبار أهل عنيزة (في المقام)، ودعاني لتناول الطعام مع والده الذي كان طيباً جداً.. هذا هو عبدالله بن عبدالرحمن البسام تاجر في جدة، ورئيس عائلة البسام في عنيزة. كان عبدالله البسام وعبدالله الخنيني صديقين حميمين يفطران ويتناولان الغداء معاً ويذهبان كل يوم لتناولا القهوة في بيت أحدهما وكانا فيلسوفان حكيمان في صحبة الأمير زامل. وقد وجدت مع الخنيني الشيخ ناصر السميري وكان كبيراً في السن ومتشدداً في الدين، وهو من تجار عنيزة المقيمين في جدة، وقد عاد أخيراً من جدة رغم أنه لم يصبح تاجراً كبيراً، وقد استأجر بيتاً في عنيزة وكان شريكاً للخنيني في تجارة الخيول حيث يقومان بشراء خيول صغيرة السن كل سنة من البدو ويرسلاها إلى بومباي لتباع هناك. وكان الشيخ ناصر قد استثمر جزءاً من أمواله –التي جمعها خلال السنين العديدة التي قضاها في جدة– مع تاجرين ذهبا للهند في سفينة ولكن عرف فيما بعد أن السفينة لم تسمع أخبارها منذ إبحارها وربما تكون قد غرقت. والتجار هناك لا يؤمنون على سفنهم من الغرق أو النار لأنهم يرون ذلك مناقضاً لدينهم ويدل على عدم التوكل على الله. على كل كان هؤلاء هم رفاقي في عنيزة.. لقد تناولنا الطعام في بيت البسام وكان يشتمل على الرز واللحم، كما أن طعام البسام اشتمل أيضا على جزر مقلي بالزبدة وخثارة اللبن (زبادي). وقد تحدثنا وتسامرنا وهذه طريقة أوروبية لأن الحديث على الأكل عادة غير محببة أبداً عند العرب. إن

العرب –عادة– يأكلون بسرعة ودون كلام حتى يفسحوا المجال لأولئك المساكين الذين ينتظرونهم ليأكلوا بعدهم.. وقد كان السام كريماً معي حيث كان يرمي قطع اللحم لي أثناء الأكل.. وكان كل واحد يقول –بعد أن ينتهي من الأكل– أكرمك الله بتواضع ولطف، وبعد انتهاء الأكل أمسك السام وأولاده المناشف للضيوف وبعدها رجعنا لغرفة القهوة وعند ذلك بدأ ابن السام الكبير في صنع القهوة. بعد تناول القهوة قام الضيوف واحداً بعد الآخر يغادرون بيت السام قائلين ينعم الله عليكم.. فيرد عليهم في أمان الله.

وتجدر الإشارة إلى أن معرفتي بالأدوية جعلتني أجد كل يوم أحد أبناء البلدة الفقراء المساكين ينتظر قرب سكني لأمسس عينيه، وكان المرضى يستخدمون قطرات غسيل العيون التي معي مجاناً.

وقد قضيت أمسيات جميلة في "القهاوي" الخاصة بزملاء وجيران عبدالله السام –ابن أخت صديقي الحنيني– ومن هؤلاء الذين سعدت بصحبتهم حمد الصافي، وهو من عائلة بغدادية مشهورة بالتجارة، وقد أمتعنا حمد هذا بدخانه البغدادي كما صنع لنا تمراً هندياً لنشربه. لقد نشأ حمد الصافي في بغداد وكان عارفاً بشئون العالم وأخبارهم.

وقد كانت قهوة عبدالله السام –خلال النهار– تضم أفضل أهل المدينة وأشهرهم، وقد كان السام كريماً جداً. كان هؤلاء هم أكثر تجار عنيزة أنساً وثقافة، حيث كانوا يقرؤون الموسوعة البريطانية والشعر العربي القديم. وعندما غادر أصدقاء عبدالله قهوته كنا جالسين نتسامر على ضوء سراج القاز ... وقد طلبوا مني أن أقوم بتعليمهم بعض المعلومات عن الأدوية وكان عبدالله السام يجد متعه في سؤالي عن أخبار العالم الغربي.

ولكن عندما يكون الحنيني حاضراً فإن السام لا يتكلم كثيراً، وقد كان الحنيني يعاملني معاملة خاصة وكأنني عربي، كما أنه كان بالنسبة لي كأنه أوروبي، وقد كان يعرف كثيراً من الأخبار السياسية، وسألني عدة أسئلة تدل على معرفته بالأخبار الأوروبية، ولذلك فهو من أفضل من يعرف بالشئون السياسية في المدينة وكان يقرأ بعض الجرائد التي تصدر في استانبول.

وبينما نحن جلوس في قهوة البسام، قال رجل شاب: إننا نعرف أن من بعض عادات الإنجليز أن الأزواج الإنجليز في الهند يقومون احتراماً ليعطوا مكانهم للحريم كما أنهم يرفعون قبعاتهم "البرنيطة" عند تحيتهم لأصدقائهم "يقول داوتي: البرنيطة هي القبعة وقد حرفت من كلمة إيطالية هي بيرتيا". وقد قلت له إن نساءنا مثقفات جداً وإنه من كرم الرجل أن يحترم الضعيف، وقد رد علي هذا الشخص قائلاً: إن بلد الإنجليز هي جنة للحريم... وقد رد رجل آخر قائلاً: والله غريب إن الإنجليز يجعلون امرأة تحكمهم وليس رجل ثم سألني: ما اسم ملكتكم يا خليل؟ فأجبته: السيدة فكتوريا.

قال لي الخنيني في صباح أحد الأيام -عندما كنا لوحدنا- مسيو خليل (وكانت هذه كلمة إنكليزية فرح بأنه عرفها) إذا كان ينقصك المال -مائة أو مائتا ريال- فأنا أعطيك إياها الآن وقد شكرته على هذا الكرم. كما سمعت أن البسام -الرجل الطيب- كان مستعداً أن يرسلني على حسابه إلى أي بلد أرغبه. وكم تناولت طعام الإفطار والغداء مع البسام، رجل كريم شكرت الله على أن أجد مثله ومثل الخنيني في تلك الأصقاع النائية.

وقد ذكر لي الخنيني أنه حريص على تربية وتعليم ولده العلوم المختلفة واللغات الفارسية والتركية والفرنسية والإنجليزية، وكان الخنيني في العشرينات من العمر ويتمنى الذهاب لأوروبا ليرى هناك الحضارة وتلك الآلات العجيبة التي غيرت حياة الناس وخدمتهم. وكان الخنيني واسع الأفق ويقدر الاختراعات ومعجباً بالتقدم العلمي والمعرفة في العالم الغربي وكان متسامحاً ويكره التعصب الديني لطيف المعشر ومن أحسن من عرفت. وكان يريد أن يرسل ابنه محمد لبغداد ليدرس سنتين في مدرسة إسلامية ثم يذهب بعدها إلى مصر أو بيروت، وقد سألني عن أفضل المدارس في بيروت. وكان عمر طفل الخنيني -الذي انشغل والده في مستقبله- عشر سنوات ولم يكن الطفل هذا يعرف كتابة الحروف، وهذا الطفل ولد في الهند من امرأة هندية وكان والده حريصا جداً على تعليمه.

وعلى الرغم من أن الخنيني لم يذهب إلى المدارس والجامعات فقد كان واسع الاطلاع وعارفاً بأخبار العالم.

كان والد صديقي الخنيني يتاجر بالخيول ولكنه كان فقيراً، أما ابنه -صديقي- فقد غامر وأكثر من الترحال إلىّ بغداد، وقد اشتغل بالتجارة ولكنه لم يستفد كثيراً في البداية. وقد اشتغل في بيع وشراء الرقيق وانتقل بسبب ذلك إلى زنجبار -والتي كان سلطانها من عمان من بني تميم- كما ذهب في التجارة إلى جزر (موريشوس) -كما قال لي- وبعد ذلك اشتغل بتجارة الأرز يحمله من مدينة بومباي إلى الموانئ العربية وأخيراً استقر في البصرة، حتى أنه كان عنده من القمح ما يساوي خمسة آلاف جنيه. وقد كان الناس في عنيزة ينظرون باحترام للخنيني ويقولون: (الله) الله أغناه لأنه رجل طيب. ولكن البعض كان يحسده، ولم يعرف الكثير أن الخنيني كان في بداية حياته فقيراً وأنه كان بالكاد يستطيع أن يحصل على ضروريات الحياة.

كان الخنيني يدرك أن السوق فيه ربح وخسارة وأسعار البضائع ترتفع وتنخفض مع الوقت، وهذا علمه كيف يستفيد من فرص السوق ويضاعف ثروته، وفي هذا الوقت كان الخنيني تاجر قمح يبيع للتجار الصغار عن طريق الإقراض و الثقة، وكان يعرف زبائنه كما قال لي بمجرد أن ينظر إليهم فيعرف حالتهم وهل يثق فيهم أم لا في مسألة البيع بالآجل. كان الخنيني كريماً يساعد الناس ويمد الجنود (الذين يهبون للدفاع عن البلد) بالمعونة، وكانت صفاته حسنه بوجه العموم، وهو مغامر وذو وجه مشرق وكان من أحكم رجال العالم.

قلاقل في المدينة:

ذهبت في يوم من الأيام لزيارة زامل فوجدت مجموعة من الناس صامتة في "قهوته" وكانوا أربعين رجلاً، ثم جاء فيما بعد الشيخ الإمام وقد أسر بعض أصدقائي في أذني أنهم هنا من أجل محاضرة دينية تعقد بعد ظهر يوم الجمعة. وقد صبت القهوة وكان البعض يشرب من نفس "الفناجيل" التي شرب بها غيرهم؛ وكان الشيخ يقرأ القرآن وينظر إلي ويقول إن عيسى هو ابن مريم وأنه كان رسول الله ولكن النصارى انحرفوا عن الحق ولم يتبعوا تعاليم عيسى بل اتبعوا أهوائهم. وعندما قام الشيخ قام بقية الناس وذهب كل واحد منهم ليأخذ نعاله.

لقد تساهل معي الناس فيما بعد بناءاً على رغبة زامل، ولكن الشيخ الإمام وقف ضدي من البداية. وهو الذي حرك الناس ضدي أنا النصراني في خطب يوم الجمعة وقد قال في إحدى الخطب: إن من البلاء الذي ابتلينا به هو أن بعض كبار أهل المدينة يولون الاهتمام لغريب غير مؤمن بالله، إن هذا الأمر لا يرضي الله وربما يكون سبباً في منع نزول الغيث علينا. وقد أثر كلام الشيخ على الناس، ولكن الخنيني والبسام وزامل استمروا في معاملتهم الطيبة لي.

لقد استمر صديقي حمد السيف -الرجل الشاب البغدادي- في احترامه لي أيضاً، وهو لم يكن متديناً، وأحياناً يقفل بابه -قبل الآذان- على نفسه، وعندما أطرقه يفتح لي (يفتحه لي أنا الدكتور خاصة) وأحياناً يعمل لي "شاي" بطريقة فارسية.

لقد انتشر الجدري سريعاً في تلك الأيام بالمدينة. وفي أحد الأيام وجدت زوجة مضيفي السوداء مكتئبة وقد أحضرت طفلاً مريضاً جداً بسبب لعبه في المستنقعات التي يتجمع فيها ماء المطر، وقد انتقلت العدوى إلى أطفال آخرين. ولم أستطع البقاء في ذلك السكن الضيق حتى لا أستنشق الهواء المعدي، ولذا تركت أمتعتي في المنزل وقضيت الأيام التالية في الشوارع وأحيانا أقضي اليوم كله بلا أكل ولا أجد مكاناً للنوم في الليل.

ولم يتقدم أحد إلي مبدياً رغبته في إمكانيتي بقائي في منزله، وكنت أذهب إلى بعض أولئك الذين عالجتهم من قبل فأطرق أبوابهم وأسمع النغمة المعهودة: (اقلط) وعندما أدخل اسألهم أن يسمحوا لي بالنوم في الدور الأرضي المفروش بالرمل. كذلك لم يتقدم الخنيني أو البسام ليسألاني أن أنام عندهما، وقد وجدت الفرج من رجل يشتغل عند زامل وكان من القلة الذين يحملون السيوف بالمدينة -مثله مثل الأمراء وأولادهم- وقد قال لي: أنا آسف يا خليل أن أراك بدون سكن ولكن هناك بيت خال ممكن أن تقيم فيه، هل تذهب لتراه؟ وقد ذهبت إليه وأقمت فيه وكان جيرانه أناساً طيبين. وكانت أم هذا الرجل العجوز تحضر لي كلي صباح خبزاً وزبداً، وعند الغروب كانت تحضر لي بعض الطعام مقابل بعض المال البسيط ولابد أنها تكون قد فعلت ذلك سراً بأمر من زامل. وكانت هذه المرأة العجوز تجلس أمامي وأرى وجهها وتعاملني وكأنني ابنها، وكان هذا الوجه هو

الوجه النسائي الوحيد الذي رأيت في وسط نجد كلها، حيث كانت البنات فقط هن الذين لا يلبسن الحجاب.

وقد زاد انتشار الجدري في المدينة ومات بسببه ثلاثين طفلاً من بين الأطفال الكثر المصابين فيه. وكان أهل هؤلاء الأطفال الذين يستدعونني لعلاجهم يتعجبون لماذا أتحاشى استنشاق الهواء في الغرف التي فيها مرضى. ومنذ أن سمعوا أنني أعرف كيف أقوم "بالتطعيم" انتشرت في نجد فكرة التطعيم وأن الإنسان "المطعم" لا يصيبه الجدري أبداً.

كان يموت في ذلك الوقت خمسة إلى ستة أطفال يومياً، ولم يكن يسلم بيت من موت أحد أفراده بسبب هذا المرض. ولم يدفع أحد شيئاً مقابل خدمات وأدوية هذا الدكتور سواء من أغنياء أو فقراء عنيزة. ولم يظهر بعض الأغنياء -على الرغم من أنني أنقذت حياتهم- أي احترام لهذا النصراني، ولكنني كنت سعيداً بإعطاء أدويتي للفقراء مجاناً.

لقد كنت أرى كل يوم في طريقي وجوها عابسة لبعض من يكرهونني(...)، ولكني كنت حذراً دائماً وأظهر وجهاً وقلباً طيباً لهم. لقد أصبح الناس البسطاء والفقراء يخافون -تدريجياً- من محادثتي. كما أن كثيراً من الناس -الذين كنت أعرفهم- تغيروا علي وقلبوا لي ظهر المجن، فلم أرى منهم ذلك الترحيب الحار والرغبة في دخولي إلى بيوتهم، وأنا اعرف أن هذا كان بتأثير الشيخ و"المطاوعة" الذين يحرضون الناس علي..... وقد سألت أصدقائي: لماذا أبدو مزعجاً للبعض؟ هل يزعجهم ديني؟ وقد سألتهم :متى تغادر القافلة مدينة عنيزة لأذهب معها؟ قالوا لي: اصبر هناك قافلة سوف تغادر في الأيام القادمة.

لقد كنت أجد أحياناً -عندما أعود لبيتي- بعض الناس يرددون : هذا كافر "يا الله إنك تميته.. الظهر أو الليل أو غداً.. هذا الفاجر الذي لا يعتنق الإسلام... لقد قد أعطيناه وقتاً ليرجع للدين ولكنه الآن يموت في عماه.. يارب اخسف فيه...

لقد تخوفت بعد ذلك حتى أنني لم أكن أخرج وأرجع للبيت من نفس الطريق. وكنت أرجع للبيت في الوقت الذي تكون فيه الشوارع شبه خالية من الناس فأرجع سراً ومعي سلاحي، وعندما أعود

في الليل من بيوت أصدقائي فإنني أطوي المشلح تحت إبطي. وفي يوم من الأيام عدت إلى مسكني فوجدت ساعتي قد سرقت –وقد كنت تركتها مع أدويتي– وكنت أعول على بيعها لأحصل على بعض الريالات. وقد ذهب شكي إلى أحد الجيران.. كما أن جميع آلات التطعيم التي في محلي سرقت، وكانت من العاج وقد كلفتني عشرة ريالات أي أكثر بمرتين مما جمعته خلال عشرة أشهر من علاجي في بلاد العرب.. لقد أصبحت أفكر فيما لو أن أصدقائي في المدينة هجروني وتخلوا عني.. ورأيت أن جري الأطفال ورائي وصياحهم خلفي إنما هو نذير شؤم، وكان الوقت في نهاية مايو أي في وقت الحر.

بعد ظهر أحد الأيام وجدت أوساخاً عند بيتي، وكان بعض الأطفال الأوغاد يرمون الحجارة علي عندما أمشي في طريق مهجور، وعندما دخلت بيتي جاء هؤلاء الأوغاد وطرقوا الباب بشدة وكان هناك صياح وقد تجرأ أحدهم وتسلق الجدار وصعد فوق السطح، وسمعت امرأة متعصبة تصيح: يا نصراني لازم تموت إنك سوف تقتل لا محالة. وقد استمر هذا الصياح والهرج وفتح بعضهم بابي ولكن هؤلاء الأوغاد لم يتجرؤوا إلى الدخول إلي. في هذه الساعة كان أهل البلد المعتبرين جالسين في بيوتهم أو يشربون القهوة في بيوت أصدقائهم. وبعد فترة طويلة فك هذا الحصار عن بيتي لأن بعض الناس الكبار مروا قرب بابي في طريق عودتهم من بيوت أصدقائهم (حيث كانوا يتناولون القهوة معهم)، وقد طردوا الأطفال وأبعدوهم عن بيتي. وقد اعتاد الأولاد بعد ذلك على الجري خلفي، حيث يصيحون ويرمون هذا النصراني بالحجارة من الخلف. وقد رأيت أحد الرجال الذين كنت أعالجهم يمر بقربي فسألته أن يبعد هؤلاء الأطفال عني ولكنه قال لي: قدم شكوى في هذا الأمر لزامل، وقد حاول هذا الرجل أن يتفادى حصى هؤلاء الأطفال وهرب من أحد الأبواب الجانبية. وقد رأيت أنه لا أحد أفضل في رمي الحجارة من هؤلاء الأطفال الأشقياء الذين يشبهون الغجر، وكانت الحصى تنطلق كالصواريخ على رأسي وأن أمشي حتى أصل إلى الطريق الذي يؤدي إلى بريدة والذي يوجد فيه خزان ماء بدائي (سد مياه). وكان الأولاد يلاحقونني ويرمونني بحصى النبال "يبطونني" ويصيحون من خلفي. وقد صاح أحد هؤلاء الأوغاد الكبار قائلاً: آخ يا الله..،

إن شاء الله واحدة من هذه الحصى تقتلك. كيف يوافق زامل والشيخ على أنك تجلس بيننا. وقد وجدت صديقي علي الزغبي وأقنعته أن يرجع معي إلى البيت ويبعد هؤلاء الأشقياء عن طريقي وقد فعل، وطارد هؤلاء وغضب عليهم وكان يخرج أسنانه عليهم ليخيفهم، وكان ممن يلاحقني بعض العجائز اللاتي هددهن الحوي علي بعصاه التي يحملها وبعقوبة زامل لهن. وبعد ذلك قال لي علي: اطمئن الآن يا خليل ولا تخف.. بعد ذلك ذهبت إلى البسام لأتناول القهوة عنده وكان الحنيني هناك، وقد أحسست بالبهجة لما رأيتهما ولكني لم أقل لهما عن المتاعب التي حصلت لي حتى لا أكدر صفو خاطريهما خاصة أنني كنت أظن أن مثل هذه المتاعب لن تتكرر.

وفي العودة وجدت أن مجموعة هؤلاء الأوغاد قد تجمهروا عند بيتي وقد سلحوا أنفسهم بالنبال والعصي، ولذلك رجعت إلى السوق لأشكوا ذلك لجار لي يدعى راشد وهو من رجال الأمير، وقد قال لي راشد إن زامل قد سمع عن هذه المتاعب التي يسببها الأولاد لك يا خليل وكذلك العجائز، وقد هددهم زامل جميعاً. كما أن الحوي علي –رجل الأمير– ضرب بعضهم.

عندما مررت –في طريقي– بسوق عنيزة كنت أسمع الناس الجالسين في دكاكينهم يتحدثون عني عندما أمر بقربهم، وكان من بين من شاهدت –وأنا في طريقي– الأمير علي (نائب الأمير) وهو يحمل سيفه وعبدالله بن الأمير زامل الذي يحمل أيضاً سيفه وهو يمشي في الشوارع. كذلك مر بقربي الشيخ ناصر وهو متجهم الوجه ولم يلق علي التحية. وعندما غابت الشمس وخلت الشوارع رجعت إلى بيتي وكنت جائعاً ومتعباً ولذلك فقد نمت مباشرة.

نفي من المدينة :

في ليلة من الليالي جاءني الحوي علي وطرق بابي وقال لي: افتح يا خليل.. الأمير معي، وعندما فتحت الباب قال لي الحوي علي إن الأمير جالس هناك في الشارع، فذهبت إليه وجلست بقربه ولم يكن زامل لأنه لم يكن متوقعاً أن يأتي زامل في مثل هذا الوقت وإنما كان الأمير علي –عم الأمير زامل– الذي بادرني بالسؤال قائلاً: متى تذهب إلى الزلفي؟ فأخبرته أنني ذاهب قريباً بصحبة ابن

عبدالله السام إلى جدة، ولكنه قال لي –وهو يضحك ساخراً–: لا.. جدة بعيدة تريدك أن تذهب الليلة.. وكان مع الأمير علي بعض حشمه كما كان معه سراج رأيت من خلاله وجها صارماً لهذا الأمير.. وقد قلت له: يا أمير علي الله يدخل والديك الجنة أنت تعرف أنني مريض وأحتاج الآن أن أبقى لبعض الوقت لأسترد بعض الأموال التي لي عند الناس لقاء علاجي لهم، وأنا الآن جائع ولم أذق شيئاً هذا اليوم، ولذا أرجو أن تسمح لي بالبقاء حتى الصباح، وبعد ذلك أسافر بسلام، فرد علي: لا يوجد عمل لك.. هناك في زاوية الشارع رجل معه جمل ويجب أن تغادر عنيزة معه على وجه السرعة فقلت له : ليس معي مال، فضحك وقال : يجب أن تغادر، وضربني بجمع يده في وجهي، وقد فكرت أن العصبة التي معه سوف تنهال علي أنا النصراني بأسلحتها إذا ما أراد هذا الأحمق أن يغدر بي، وكما قعت فقد استل على سيفه إلى النصف، فقلت له لا داعي لهذا العنف. وفي هذه الأثناء سمع راشد (أحد رجال الأمير زامل) هذا الهرج –وكان جاراً لي وبيته خلف مسكني– فجاء مسرعاً وأنا فرحت بمجيئه وسألته عن رأيه فيما أمرني به الأمير علي. ولم أفكر أبداً أن هذا التصرف من الأمير علي كان بإيعاز من الأمير الفيلسوف زامل الذي لم يكن ليأمرني بمغادرة المدينة في منتصف الليل. وعندما قلت لراشد إن الأمير الوهابي علي ضربني قال لي: لا تغضب وبدون شك فإن ما قاله لك كان بعلم الأمير زامل فالأمير علي لن يأتي بنفسه وبدون علم زامل ليجبرك على المغادرة، ولذلك فأسرع بالرحيل.. وفي هذه الأثناء صاح الأمير علي قائلا: قل لخليل أن يسرع فهل هو مستعد. وجاء بنفسه وقد ساعدني ومعه راشد على حمل متاعي لأنني كنت مرهقاً وقد سأل راشد الأمير علي: إلى أين سوف نرسل خليل فأجابه : إلى الخبراء فقال راشد: من الأفضل أن يذهب إلى الهلالية أو الرس لأنهما تقعان على طريق القوافل. فأجابه الأمير علي: سوف يذهب إلى الخبراء كما أقول. وقد قلت له بما أنك أنت الذي أمرتني بالرحيل فإنك سوف تدفع أجرتي للجمال لأنني لا أملك إلا القليل. فأجاب الأمير علي: لا أنت الذي سوف تدفع له وأسرع بالرحيل، أعطه ثلاث ريالات يا خليل. وقد قال راشد: إن الأجرة إلى الخبراء هي نصف ريال فقط. ولذا فمن الممكن أن نجعل خليل يدفع أقل يا أمير علي ، فأجاب: أجل اجعلها ريالين وأنا أدفع

الباقي، وقد سألته: هل هناك أحد يعالج بالأدوية في المدينة من بعدي ، فأجاب الأمير علي: لا نريد أدوية. وسألته : ألم أكن أفعل حسناً وبأمانة في عنيزة ، فأجابنا الأمير علي: نعم ولكن أسرع بالرحيل، فسألته: ولكن لماذا كل هذا؟ فصاح في قائلاً : ألست مستعداً بعد، اركب.. وفي هذه الأثناء سرق أتباعه نعالي التي كانت في مدخل غرفتي، وقد صاح فيهم الحوي الزنجي علي متهماً إياهم بسرقتها قائلاً: أعيدوا لخليل حذائه. وقد شكوت ذلك للأمير الذي قال : ليس هناك حذاء .. وقد كان يصعب علي السير في الصحراء بدون حذاء .. وقد صاح الأمير علي اركب.. اركب، ولكن ادفع أجرة الجمال مقدماً.. وقد بقي معي أقل من خمسة ريالات، وأنا الآن وسط البلاد العربية وساعتي قد سرقت، وعندما ركبت الجمل تبعني الأمير وأعوانه حتى "المجلس" وقد سألته إلى أين أذهب في الخبراء فقال لأميرها عبدالله العلي .. فقلت له أعطني رسالة له فقال لي: لا لن أعطيك، وقد سمعت الأمير يتكلم سراً للجمال ولابد أنه كان يتكلم معه في غير صالحي وإلا لرفع صوته. وقد تبعنا الحوي علي –أول مضيف لي في عنيزة– حتى بوابة السور .. وقد تعجبت له وقلت له أين أصدقائي في عنيزة الآن ؟ فقال لي الحوي علي إن زامل أعطى أوامره بأن أغادر عنيزة في هذا الوقت من الليل ليتفادى أية مشكلات قد تحصل في المدينة، كما أن السير في الليل أكثر أماناً، ثم قال لي إن رسالة وصلت من شيخ بريدة لزامل ولشيخ عنيزة يحضهم فيها على طرد النصراني.

قال لي الجمال إنني سأكون في الخبراء عند الفجر، وقد وعدني الحوي علي وقال إنه سيذهب للخنيني ويسأله أن يرسل لي بعض المال مقابل الأدوية التي أعطيتها له من أجل علاج أمه، ولكنني علمت فيما بعد أن علياً لم يذهب للخنيني.... وقد سألت علي أن يطلب من الجمال أن يحلف أن يكون أميناً معي فحلف الجمال وكان اسمه حسن وهو نفس اسم الجمال الذي حملني من بريدة لعنيزة.

عند أسوار المدينة رجع الحوي علي وتابعنا الرحلة للخبراء.. والخبراء بلدة صغيرة وأهلها فلاحون، وهي تحت حكم أمير بريدة وقد كانت تسكنها قبيلة قحطان. تابعنا الرحلة وعندما أصبحت

الخبراء على بعد ميل واحد منا حاول الجمال حسن أن ينزل متاعي قبل الوصول للبلدة ولكني أخرجت مسدسي وقلت له: إن كنت خائفاً أن تدخل الخبراء فأنا أستطيع أن أذهب هناك – لوحدي– بالجمل وعليه أمتعتي والحقني هناك وخذ جملك فيما بعد. وقد أبدى موافقة وقال: احمل كذلك حربة تساعدك ضد أي واحد يحاول أن يأخذ جملي. وقد جاء رجل من أهل الخبراء –كان قريباً منا– فتدخل في الأمر وذكر للجمال أن الرجل الغريب له الحق أن تؤخذ أمتعته حتى أسوار البلدة، وقد فعل حسن ذلك ولكنه رفض أن يدخل من بوابات سور البلدة، ولذلك فقد ربط جمله عند بوابة السور ولكنه حمل أمتعتي على ظهره حتى وسط السوق. عندما وصلنا جاء أهل البلدة إلينا وتجمهروا حولنا، وعندما عرفوا بقصتي مع الجمال وافقوني على ما فعلت، وقالوا لحسن يجب أن تحمل أمتعة الضيف حتى "قهوة" الأمير. وقد كان كثير من أهل البلدة "جالون" ولذلك فمنظر رجل غريب هو أمر مألوف عندهم، فهم يذهبون بقوافلهم للحج سنوياً.

دخلنا قهوة الأمير، وكان هناك رجل أعمى وهو علي –أبو أمير الخبراء– وقد قام هذا عندما أحس بنا وذهب ليعمل القهوة. وقد جلست مع عدد من الرجال في القهوة –وكنا صفاً– والترتيب في الجلوس قرب مقدمة القهوة كان يعتمد على عمر ومكانة الشخص. بعد فترة جاء الأمير من مزرعته –وكان فلاحاً– فرحب بي وأرسل في طلب الجمال حسن ليتناول القهوة معنا. كان الناس ينظرون إلي ويتهامسون، وأحسست أنهم يعرفون أنني أنا النصراني الذي أرتحل من مكان لآخر في المنطقة، وبدأ شعوري بالضيق خاصة أنه ليس معي مال وفكرت فيما لو أرسل لي الخنيني أو البسام بعض المال، وإلى متى سيتحمل هؤلاء الناس بقائي فيما بينهم، وفكرت في أن آخذ من الناس مالاً –خاصة الأغنياء– ثمناً لأدويتي، لعل هذا يكفي لشراء الخبز وللحصول على مأوى.

عندما ذكرت لهم اسمي راودني الإحساس بأنهم يعرفونني، وقد سألني بعضهم عدة أسئلة ومنها هل معي بعض الأدوية؟ ولكن رأى بعضهم أن يدعوني الآن ليكملوا الحديث معي في الغد. بعد أن انتهى الناس من شرب القهوة مرة ثانية غادروا المكان ولم يبق سوى الأعمى علي "والد الأمير"، وقد اقترب هذا مني هذا وسألني فيما لو كنت أستطيع علاج عيونه، وهنا قال الأمير: ساعد أبي،

وقد سألت الأمير: هل أنا في أمان هنا؟ فقال لي: ابق هنا معنا عدة أيام واعتن بوالدي وسوف ترى ماذا سنفعل. وقد أعطاني علي بيتاً خالياً بقرب بيته لأقيم فيه. عندما حل الظهر قادني الأعمى إلى غرفة في الدور العلوي فوجدت هناك طعاماً من التمر والخبز والماء. كان أمير الخبراء في منتصف عمره وكان أبوه حديث الزواج بفتاة صغيرة، وعندما لا يكون هناك أغراب فإن هذه الفتاة تجلس بجانبه ويبدو أنها تحبه كثيراً، ولها منه ولد ولكن الطفل عيونه شاحبة ومريض، وقد طلبوا مني أن أبحث له عن علاج.

لقد تعجبت كيف أن الخبراء تبدو هادئة هدوءاً ملفتاً للنظر فقلما يسمع صوت أو يرى أحد يمشي في الشوارع، ولم أسمع فيها عن مجالس "القهاوي" كما في عنيزة، فقد كان الناس في تلك الأيام مشغولين في أمور الحصاد والدرس ، وكان موسم الحصاد ضعيفاً لأن البرد قد ضرب سنابل القمح. وكان سكان الخبراء الذين رأيتهم قرويين... ولم يدع أحد هذا الغريب إلى قهوته...، وكان الأمير وأبوه أفضل من رأيت في البلدة. ويوجد في الخبراء حوالي **600** بيت ، وقد كان بعض رجال الخبراء عسكريين في المدينة للحكومة التركية.

لقد فكرت أن الخبيتي لن يتصل بي مرة ثانية، ولكنني سمعت في اليوم الثالث من وجودي في الخبراء طرقاً على الباب، وكان هناك رجل يصيح : افتح يا خليل ، زامل أرسلني إليك، وعندما فتحت الباب وجدت الجمال حسن وسألته: هل معك رسالة؟ فقال: كلا ليس معي أية شيء، وذهبت معه إلى الشيخ علي حتى يسمع أقواله وقد قال: إن زامل أرسله لي وهو يريد أن يرسلني مع القافلة الذاهبة إلى جدة، وسألت الشيخ علي: هل أذهب مع حسن وأعتمد فقط على كلمات قالها لي؟ فقال لي: اذهب يا خليل ولا تخف ، اذهب بسلام، وأنا أعرف أنه من الأفضل لهذا الرجل الأعمى أن أبقى لأعالجه ولذا صدقته. وقد تركت مع هذا الشيخ الأعمى بعض الدواء لغسيل العيون ففرح بها. حمل بعض الشباب متاعي ورافقني بعضهم إلى البوابة حيث أبقى حسن جمله هناك.

سألت حسن ماهي حقيقة ما يريده زامل مني؟ فقال إنه يريدك أن ترجع لعنيزة، وأنك سوف تسكن في البيت الكبير الواقع في القاع "مكان الطمي الذي انحسرت عنه مياه الأمطار"، وكان هذا

البيت يخص رجلاً يدعى راشد وهو غائب عن عنيزة الآن. سرت مع حسن ولما وصلنا المكان المذكور رأيت مجموعة من الناس في حقل قمح و قال لهم حسن إن زامل هو الذي استدعاني لعنيزة، وقد دعاني أكبرهم وهو إبراهيم لأترك أمتعتي وأدخل وقال إنه سوف يذهب بنفسه مع حسن إلى الأمير زامل ليتكلم معه في شأني، وقد قالوا لي إن عنيزة ليست بعيدة وهذه النخيل وحقل القمح الواقعة في قرب الوادي إنما تقع على مسافة بسيطة من عنيزة جنوب العبارية. وقد كانوا مشغولين في معالجة القمح، وكانت هناك مجموعة من النساء تضرب على القمح بأدوات خشبية، وقد كان جزء كبير من القمح ينقل يومياً إلى بيت راشد بالمدينة. وكانت هناك أسوار عالية لهذا الحوش وفيه أربعة منازل طينية وأبراج صغيرة تقع في الزوايا، وفي الوسط بئر يسحب العمال منها الماء، وهناك غرفة لامرأة من الرقيق ومعها ابنها. وتبلغ تكاليف هذا المكان -المبنى من الطين والذي يشبه القلعة- نحو 100 ريال للعمال، كما أن تكلفة البئر هي 500 ريال.

في منتصف وقت الظهيرة من اليوم الذي غادرت فيه الخبراء رأيت رجلين قادمين من النفود، وقد كانا الخنيني وحمد الصافي اللذين جاءا لزيارتي، وقد قال لي الخنيني إنه نفسه لم يعلم -كما لم يعرف البسام ولا أي أحد من أصدقائي- بما حدث لي في تلك الليلة التي غادرت فيها عنيزة، وقال لي إن أصدقائي في عنيزة سمعوا الخبر في الصباح حتى أن حمد الصافي كان ينتظرني في الصباح على الفطور وقد استغرب أنني لم آتِ إليه. وذكرا لي أنه عندما سمع الناس بمغادرة النصراني للمدينة تحدثوا عن ذلك في السوق ولام كثير منهم الشيخ على تحريضه الناس ضدي وأنهما لم يعلما بما حدث لي إلا في المساء عندما ذهبا لزيارة زامل وأنهما سألاه كيف يرسلني وبدون علمهما. وقد قال لهما زامل إن هذا حدث عن طريق المشورة، وقد ذكرا لي أن أصدقائي قالوا لزامل "إن خليل ابن أجواد ورجل يستحق العطف ولذلك كان يجب أن تؤمن له رحلة مأمونة".

وقد عرفت أن البسام -وكان له كلمته المسموعة عنده- قد طلب من الأمير زامل أن يرجع خليل ويبقى في بعض المزارع الواقعة خارج عنيزة إذا كان البعض.. لايرضى بوجوده داخل المدينة وذلك حتى تأتي إحدى القوافل ويذهب معها. لهذا أرسل زامل في طلب حسن وأمره أن يذهب إلى

الخبراء ويقول ذلك خليل. وقد عرفت أن أصدقائي في عنيزة قد استعجلوا الجمال حسن أن يفعل ذلك بسرعة، وأنهم هم الذين أشاروا على زامل أن أبقى في مزرعة راشد خارج المدينة. وقد قال لي الخنيني إنه لا أحد يستطيع أن يؤذيني هنا، ولذلك فيمكن أن أرتاح هنا حتى يجهز لي وسيلة مريحة وآمنة للمغادرة. وسألني إلى أين أريد أن أذهب فقلت له إلى جدة، وقد ذكر لي أنه سوف يجعل زامل يساعدني في ذلك وسألني هل أريد شيئاً آخر فطلبت منه أن يعطيني بعض المال ففعل وأعطيته "شيكاً" مقابل بعض الريالات التي أعطاني إياها، وقد قال لي الخنيني الفيلسوف إن المال هو وسخ هذه الحياة أو كما قال داوتي **"Nejus eddinya"**.

وقد قال لي حمد الصافي: لا تثق بأحد يا خليل، ولكن من عادتي أنني كنت أتحدث بصراحة حتى في الشئون الدينية، وقد قالا لي (الخنيني والصافي) إنني هنا في مأمن من.. الأمير علي، وعندما قلت لهم إن هذا.. قد ضربني غضب حمد الصافي.

لم تحصم قيمة الشيك الذي أعطيته للخنيني إلا بعد سنة في أوروبا، وكانت القيمة قد دفعت في بيروت. وقد كانت العملة الأسبانية (**Spanish Crowns**) هي العملة السائدة في القصيم (كما يقول داوتي). وقد سألت كيف يجلب التجار الأجانب هذه الكميات الكبيرة من الريالات الفضة إلى هذه المناطق عبر فيافي الصحراء الموحشة، فقيل لي مع قوافل الحجاج القوية.

كان الوقت الذي أمضيته في هذه المزرعة المسورة يمر بطيئاً، وكنت آخذ الماء مرتين يومياً من بئر المزرعة وأجلب الحطب من النفود لأقوم بطبخ "ضمة يد" من الأرز ، وقد أحبني العمال الفقراء في المزرعة (مزرعة الراشد) وتسامحوا معي دينياً وتمنوا أن أبقى معهم دائماً.

كانت هناك قافلة قادمة من البصرة إلى عنيزة وكان معها راشد صاحب المزرعة. وراشد هذا صاحب تجارة وقد تزوج أربع نساء عندما تحسنت تجارته، وله العديد من الأطفال وربما عنده مائة طفل أو أكثر، ولكن كثيراً منهم قد ماتوا، وقد سمعت أن عنده خمسة عشر بنتاً، وفي بيته الكبير بعنيزة يقيم حوالي **30** شخصاً.

في اليوم الثالث من بقائي في المزرعة جاء راشد قادماً من بلاد الرافدين –بعد أن أقام في عنيزة بعض الوقت ليتفقد نخيله– وقد اقترب مني وقال: هل أنت النصراني؟ فأجبته: نعم وقد تحدثت معه وعملت له "شاي" وأكثرت فيه السكر، وقد سمعت فيما بعد أنه يقول إنني رجل أمين...، وقد قال لي: إن شاء الله إن المسألة لا تطول وتغادر مع القافلة، وقد تفقد راشد مزرعته وعماله في ذلك اليوم.

كانت الأيام التي قضيتها في الانتظار في المزرعة تمر طويلة حتى وصول القافلة. وكان الأمير زامل قد أخر غزوة مع مطير ضد قحطان حتى تأتي هذه القافلة من الشمال، أما القافلة الذاهبة إلى مكة فلن تذهب حتى يتوصلوا لقرار بشأن هذا الغزو.

في هذه المزرعة التي تبعد ميلين ونصف عن عنيزة لم يأت أحد من الذين عرفتهم لزيارة هذا النصراني فقد كانوا خائفين من الوهابيين ولم أسمع عن البسام أو الخنيني بعد زيارتهما الأولى لي، ولكن كان يأتيني من وقت لآخر بعض المرضى للعلاج قائلين: إن الخنيني أو زامل أرسلهم لي. وقد بقيت ثلاثة أسابيع في هذه المزرعة وكتبت بعدها على ورقة إن الجوع والتعب قتلاني وأرسلت هذه الورقة إلى الخنيني وقد جاءني رسول الخنيني في اليوم التالي ومعه خبز وزبد ولبن وقال لي إن الخنيني يسلم علي وسوف يبحث لي عن وسيلة للمغادرة في أسرع وقت.

كان شيخ مطير موجوداً في عنيزة في ذلك الوقت يناقش الأمير زامل والمشايخ عن الغزو القادم وقد كانت قحطان تظن نفسها في مأمن في وسط الصحراء من أي غزو في هذا الفصل الشديد الحرارة. وقد طلب من أهل عنيزة أن يكونوا جاهزين للغزو غداً وجهز الأمير زامل 600 رجل. وكان مع مطير 300 رجل هذا بالإضافة إلى 200 رجل على خيولهم.